الأول المتغيرات

— اسمعي يا حورية .

— نعم .

— أتذكرين قطعة أدبية قرأناها معاً سنة ١٩٣٤ اسمها « في النار ولا تحترق » للرافعي ؟

— ماذا ؟ .. في النار ولا تحترق ؟ ... أوه .. أجل أذكرها . أذكرها بالضبط ، قصة الراقصة المتدينة التي أرغمتها الحياة على التبذل والرقص مثلنا في الليل أمام الناس لقاء أجر تقتات منه هي وأخوتها الصغار ، ثم تذهب بعد ذلك فتمضي بقية ليلها — بعد أن تتطهر — في الصلاة والتعبد والاستغفار ..

— بالضبط يا حورية .. بالضبط .. إنك تذكريها جيداً ..

— وهل ننسى أمثال هذه الروائع التي تتصل بحياتنا الأسيفة الأليمة ؟ اننا يا زينات بهما نسقط ونهما نهوى ، فيا من ميزات الناس ! .

— لست أقصد الى هذا من تذكيري لك بهذه القطعة .

— اذن الى أي شيء تقصدين ؟

— فريد .. فريد قائد فرقة الجازباند الجديد .. هذا الفنان الذي يحيا بيننا . انه يمثل تماماً حياة هذه الراقصة التي عناها الرافعي وصورها لنا في مقطوعته : « في النار ولا تحترق » .

— فريد وراقصة الرافعي ؟ كيف هذا ؟ اني لا أفهم عنك . حقاً إن المايسترو فريد رجل مستقيم ، ولكن ما صلته براقصة الرافعي ؟

واعتدلت زينات في مجلسها وأشعلت سيجارة هافانا فاخرة وقالت لزميلتها حورية : إن فرقتك وفرقتي أنا أيضاً لن يأتي وقتهما الا بعد الساعة العاشرة والنصف ، ونظرت الى الساعة في معصمها وأردفت تقول : والساعة الآن التاسعة والنصف ، فأمامنا ساعة كاملة احدثك فيها عن المايسترو فريد ، خذي هذه السيجارة .. قالت ذلك ومدت بيدها

فحضر الساقي فطلبت منه أن يحضر كأسين كبيرتين من شراب البيرة المثلوج . ثم عادت للحديث مع صاحبتها ووجهها للسماء ، قالت :

— إني أعرف فريداً هذا من عام ١٩٣٢ حين كنت مبتدئة في حياتنا الصاخبة المعربدة هذه ، في ملهى بديعة بالجيزة الذي كان معروفاً باسم «السمرفوليز» وكان رئيس الأوركسترا يأتي في كل ليلة ومعه فريد هذا وسنه إذ ذاك حوالي السادسة عشر فيجلسه الى جواره يعزف على الكمان ، وكنا جميعاً نسأل رئيس الأوركسترا عن هذا الشاب العازف الصغير ذي الصورة الجميلة وعن سبب احتضانه له ، وكانت بعض زميلاتنا الخبيثات يتهمن الرجل بأنه يعشق ذلك الفتى . ولكن الحقيقة أن فريداً هذا كان ابن شقيقة الرجل فكان يحضره معه يدرّبه على العمل ويقدّمه في الأوساط الفنية ، وكان لفريد من نبوغه وحبه لفنه ما جعله يتقدم تقدّماً لفت إليه أنظار روّاد الملهى . . ولكن حادثاً وقع بين مدير إدارة الملهى المتسعرف وبين الفتى جعل الفتى ينور ولا يحتمل غطرسة هذا المدير . ويرد إليه إهانته بأضخم منها أمامنا جميعاً ، ثم يدع الملهى ويخرج ولا يعود إليه بعدها أبداً . . وكنا نسأل عنه خاله رئيس الأوركسترا فآناً يقول إنه يعمل في الكبيت كات . وآناً يقول إنه يعمل في البيروكيه أو غيرها . . إلى أن كنا في عام ١٩٣٨ وكنت مع صديق لي في ملهى الكارلتون بإسكندرية ، وما كان أحد سروري حين رأيت الفريد هذا منتصباً بقامته المديدة وعمره الناعم يتهدّل على جبهته العريضة الناصعة ، يقود فرقة الجاز . . . وصديقي ياحورية ، لم أملك نفسي — حين رأيته — من الاندفاع إليه عقب انتهائه من عزف مقطوعته وتحيته بحرارة وشوق أثارتا حقد صديقي الذي كان معي . وبقيت على تقديره والإعجاب به طوال ذلك الصيف . وأشهد يا حورية ، لقد كان هذا الفتى الفنان ظاهراً عفّ النفس ، ولطالما انتظرت كثيراً أن يغازلني أو يدعوني — كغيره من زملائه — الى سهرة خاصة بعد العمل . فأبداً أبداً يا صديقتي ، لقد كان ملكاً وكان شاذّاً في وسطنا هذا المربوء الملوّث بالرجس والآثام . . تماماً يا حورية ، لقد كان كما قال الرافعي ، في النار ولا يحترق . .

وقطع حديث زينات قدوم الساقي وطلبها لمقابلة أحد أصدقائها الموثرين ، فقامت معه

بعد أن اعتذرت لزميلتها ، ولم تلتقيا إلا على خشبة المسرح وهما تؤديان أدوارهما . وبعد أن فرغتا من عملهما وذهبتا إلى حجرتيهما تخلعان ثياب الرقص وترتديان ثيابهما العادية ، أقبلت حورية على زينات في حجرتها تستحثها للإسراع والخروج لتتم لها حديث فريد . ولكن صديق زينات الثري كان بانتظارها في سيارته . وبالطبع اعتذرت زينات في رقة لزميلتها . .

* * *

ومضت الليلة وحورية تفكر في حديث هذا الفريد الذي تهتم به صديقتها ، وماذا عساها تكون حياته تلك المحفوفة بالنار ثم لا تحترق ولا تؤثر فيه النار ؟ .

وفي الليلة التالية ، في نفس المكان والزمان ، أقبلت زينات على زميلتها حورية تحدثها عن جولاتها بالنهار بمحلات الأزياء وغيرها مع صديقها الثري الأبله . ولكن حورية كانت في غنى تام عن سماع هذا الحديث المعتاد فقالت لصاحبتها : دعينا من هذا وحدثيني عن بقية حديث صاحبك فريد .

قالت زينات : آه . . إنك على حق . ثم أخرجت سيجارتين . أشعلت واحدة لنفسها والثانية لزميلتها وطلبت من الساقي قدحي قهوة . . وأحضرت القهوة واختلط دخان السجاير ببخار القهوة واعتمدت زينات رأسها بيمينها وراحت تحتسي القهوة وتجذب أنفاساً عميقة من سيجارتها ثم بدأت تقول : — حقاً . لقد عجبت لتقلبات هذا الفنان السريعة من عازف صغير على الكمان إلى قائد أوركسترا ضخمة في ملهى نجم كملهى كارلتون . . وعدت للقاهرة . . وما عدت أسمع عنه شيئاً فرأيته سبعة أعوام إلى أن كان يوم أول مايو الماضي وكنت راكبة ترام الجيزة وكان الترام يسير مندفعاً نحو الجنوب على شاطىء النيل في جهة ثم الخليج حيث النيل على يمين الطريق . وعلى يساره مبانى تلك الآثار الضخمة الشاهقة التي بناها صلاح الدين الأيوبي لينقل عليها الماء من النيل الى القلعة ، وعلى حافة النيل في تلك الجهة أشجار التين الهندي الضخمة المتشعبة يستظلها الناس وقت الهجيرة ويترا كمون تحتها في كثرة واختلاط يشوّهان جمال هذه البقعة الرائعة ، فهناك الأمثال المتمرّدون والمتسوّلون

وباعة الفاكهة والأغذية القذرة والخلاقون الذين يفترشون التراب والعمال العاطلون وغيرهم وغيرهم من المتسكعين . . أوه يا حورية . . في هذه البلبة ، والترام يسير سريعاً ، كانت عيني على كل ذلك وفجأة لمحت ، في غمار هؤلاء الناس ، فريداً . . أجل فريد بعينه قائد أوركسترا ملهى الكارلتون الذي لم أره من ثماني سنوات . . هو هو بعينه . . عرفته رغم أنه كان يرتدي ملابس متواضعة جداً — سترة من قماش شمي رخيص فوقها سترة . . ولست أدري ما الذي حملني على النزول من الترام حين وقف ، والعودة الى هذا الفريد ؟ . إننا يا أختي على الرغم من ميلنا للرجل المرح الفاجر المتلاف وتفضيله على غيره من الرجال المتزنين المستقيمين ، نميل في أعماقنا الى الرجل المستقيم الفاضل حتى ولو لم يكن هناك أمل أو مطمع لنا فيه . ونزلت وعدت الى الوراء نحوه . حتى صرت قبالته . . إنه واقف أمام عربة صغيرة قذرة عليها وريقات صفراء هزيلة هي بقايا كتب قديمة يعرضها للبيع رجل أشيب ، ووقف حولها بضعة من الناس يقلبونها وينتقون منها ما يروقهم ثم يساومونه على ثمنها . . ولما صرت قبالة فريد ، وقفت مبهورة ولم أجرؤ على محادثته حتى رفع هو عيناه ووقعتا عليّ فما اهتم بي ، وعبرني بنظره إلى ما كان بيده من هذه الكتب القديمة ، ولم أطق صبراً فناديته . أستاذ فريد فالتفت نحوي ثم جاء إليّ يحييني بفتور ، ولكنني ضغطت يده بحرارة وشوق وقلت له : أين أنت يا رجل كل هذه السنوات الطويلة ؟ وتمتم بقوله : في الحياة . قلت له ما هذا الذي في يدك ؟ قال ، انتظري حتى أعطي الرجل ثمن الكتاب . وبعد أن عاد سألته عن الكتاب الذي معه وجذبته — أعني الكتاب — من يده وقرأت عنوانه ، « دلائل الخيرات » فقلت له : ما معنى هذا ؟ فابتسم وقال : إسم كتاب . قلت : ماذا فيه قال : كلام يقرأه الناس المتدينون قبل الصلاة وبعدها فيه عبادة وتوجل الى الله واستغفار من الذنوب والآثام ، وعقب فتح الكتاب وأخذ يقرأ منه كلاماً ضحكت منه كثيراً ومع ذلك لا أنكر يا حورية أني كنت أحس له وقعاً في أعماق نفسي ! . .

وطال بنا الحديث ونحن وقوف أمام حاجز الشاطىء للحديدي . . وقصّ عليّ فريد حديثاً عجباً . قصّ عليّ كيف نجح في الاسكندرية نجاحاً باهراً وكيف أنشأ ملهى فخماً للموسيقى ملأت الاسكندرية صيحته ونجاحه الكبير . وقصّ عليّ كيف كان معارضاً

نفسه في انشاء هذا الملهى الذي كان يريده للموسيقى فقط ، ولكن حتى بلغ فيه الحد وصار ملهى تقتل فيه الفضائل وينشأ الجنود والرقصات . . وقال لي فريد : انه كان يمنّ نفسه بهذا العمل خارجاً على نواميس الفضائل وقواعد الاجتماع النظيفة ، وان أمانيه واستقامته كانتا تتغصان عليه حياته وتجعلانها جحيماً لا يطاق . . هو الرجل المستقيم القادر يدير ملهىً للرقص والخمر والرذيلة ؟ . ويدفع أيضاً الرشا لرجال الأمن وحماة الآداب ؟ . . أجل هو يفعل هذا ، وهو ثائر على نفسه غير راضٍ عنها من أجل هذا . ولكن شيئاً واحداً لم يرضَ أن يفعله ولو قد فعله لارتفع وارتفع . هذا الشيء الذي لم يفعله هو تقديم النساء . . النساء كلون من ألوان الرشوة . . أبداً . . أبداً لا يقدم النساء . وأبداً لا يكون قوّاداً . . واذن فليتعرض الملهى لمعاكسات رسمية واضطهادات سافرة وتحرير مخالفات له وعدم حمايته وحمايةً ملهاه من عبث الجنود المعربدين وإذن فليخسر وليخسر . . وليفشل المشروع الضخم بعد نجاح كبير . وليصفي الفنان حسابه وليعجز أصحاب الديون على أثاث الملهى وليخرج فريد هذا الفنان الكبير من الاسكندرية كما كما دخلها خاسراً أكبر الخسران في هذه الأيام التي أثرى فيها حتى الحيوان ! . . وليعد الى بيته القديم المتواضع في عطفة السكر والليمون يرعى اخوته وأهله بعد موت أبيه ويرعى مع ذلك عبادته وفنه . . ثم يدعى ليصل قائداً للموسيقى في ملهانا هذا الذي نعمل فيه . هكذا حدّثني وتأثرت ياحورية وسال دمعي وفريد يقص هذا الحديث . كان يومها يتحدث وصوته المتهدّج كأنه لحن شجاوي منبعث من قيثارته فيهتز له كياني . وختم حديثه بقوله : وأيقنت أخيراً ياسيدتي ، وبعد كل هذا ، أن ليس للانسان إلاّ عمله الصالح . أما الربح الطائل المحرّم ، وأما العيش الفاجر . وأما الاستهتار بالفضائل . . أما كل هذا : فيذهب جفاء ! . .

* * *

ولم تسكد زينات تفرغ من حديثها حتى كان ظلاء وجهها ، قد أتلفه ذلك الدمع الغزير المنهمل من عينيها السوداوين الجميلتين ! . وحلّ موعد عملهما فقاما اليه . ولكن زينات ! مالها الليلة ؟ وماذا أصابها ؟ ما هذا الجمود والثقل في الحركة ؟ ثم ماذا أصاب جمهورها المعجب

بها ؟ إنه لا يصغي لها كثيراً على عادته ولا يطلب تكرار نغمتها مراراً كما يفعل كل ليلة قبل الليلة ؟ أود . وما زوجها لا تتصل بأرواح جمهورها ولا تؤثر فيهم ؟

* * *

في اليوم التالي وفي وقت الأصيل ، كانت حورية تجلس في شرفة الملهى تنتظر صديقتها زينات وكأنها تنتظر حدثاً ذا بال . . وأقبلت زينات . . فأي إقبال هذا ؟ . . زينات ، الفتاة المرحة اللعوب الطروب الراقصة للفاتنة ، تمشي على استحياء ! وعليها سمة من جلال ومهابة ! ! . . وحورية ؟ حورية هي الأخرى ، ماذا دهاها فألجمها عن استقبال صاحبتها بعداعباتها الخزلة الماجنة كعادتها ؟ . . وفوجئت حورية بزينات تحييها تحية جافة جادة : السلام عليك . ولم تشهق حورية ضاحكة ولا صاخرة من صاحبتها وإنما ردت التحية في وقار وجفاف ، أرغمت عليهما إرغاماً . . وجلست زينات وطلبت قهوة وراحت تحتسيها مع صاحبتها في سكون وصمت . ثم قطعت زينات الصمت بقولها : وبعد ، فياحورية ، لقد أتيت الآن لأودعك أيتها الرفيقة الحبيبة وأتمنى لك ولحياتك ، هذه الصاخبة الماجنة ، نهاية قريبة سعيدة ، كنهايتي . قالت حورية على الفور : أية نهاية ؟ خبريني يا أختاه . أعثرت وجه صديقك الجديد الثري ؟ قالت زينات : صديقي الثري ؟ . . كلا يا صديقتي ، إنه صديقي الفقير المتدين [illegible] معه وقتاً طويلاً نقرأ في كتابه « دلائل الخيرات » . . يا صديقتي لقد آمنت معه . . آمنت بقوة أن ليس للانسان غير عمله الطيب وصفاء نفسه . . وآمنت معه بشدة أن الموسيقى والدين كلاهما يسموان بالنفس وينقيانها من الشوائب والأدران ، وأنهما يطهران الروح ويدفعان بها إلى عليين . . سأتزوجه ياحورية . . وسأحيا معه للدين والموسيقى . . لقد اتفقنا على ذلك . . وسأبقى معه في منزله المتواضع ، لا أبرحه أبداً ! . .

ثم قامت سريعاً ، وقبلت صديقتها ، وتركت الملهى إلى منزل الزوجية . . الى منزل فريد الموسيقار حيث الطهر والاستقامة و . . كتاب دلائل الخيرات . .

محمد طلعت دنيا

٢٠٠ ألف دولار

تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت

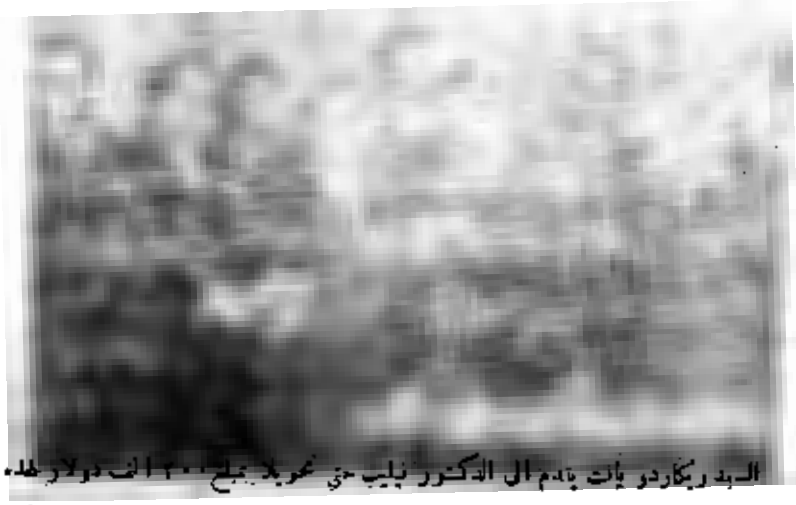

السيد ريكاردو يافث يقدم الى الدكتور بايلي حتي تحويلا بمبلغ ٢٠٠ الف دولار لهذه المؤسسة

تردّد نبأ الهبة التي جاد بها ورثة المرحوم نعمة يافث اللبناني لبناء مكتبة في الجامعة الأمريكية ببيروت وهي مائتا ألف دولار . وقد وصفها مكتب جمعية الكليات الأمريكية في الشرق الأدنى بأنها أكبر هبة في سبيل العلم جاد بها مهاجر من أصل عربي .

أما الواهبون فهم أرملة المورث وأولاده السبعة . وكان المرحوم نعمة يافث من أثرياء المهاجرين اللبنانيين الذين توطنوا البرازيل وتعد الشركة التي أسسها باسم شركة يافث وأولاده من أعظم الشركات الصناعية التجارية في البرازيل ولها عدّة فروع ، ومن مؤسساتها وممتلكاتها مصرف ومنجم ومصنع للغزل والنسج لا نظير له في تلك البلاد . وستعرف المكتبة باسم مكتبة « نعمة يافث » وتكون أول منشأة تحمل إسماً عربيًّا

ومما يذكر عن المورث أنه ولد سنة ١٨٦٠ في بلدة الشوير بلبنان ، وتخرّج في الكلية السورية الانجيلية ببيروت ، وقد أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية . وكان من رجال العلم ، مولعاً بعلوم الرياضيات وله مؤلف في الحساب وقد أسس الأكاديمية الشرقية ببيروت سنة ١٨٨٠ وهاجر الى البرازيل سنة ١٨٩٣ وتوفي فيها سنة ١٩٢٤ .

ولأسرته شهرة في أعمال البر كشهرتها في أعمال التجارة . فلا يخلو مشروع وطني أو خيري في البرازيل من أثر كرمها . واعترفت بلدية ساو باولو بفضائلها فخلدت ذكراها باسمها.